التشبيه

فى شعر ابن المعتز وابن الرومى

تأليف

الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

سفر جديد فى النقد والموازنة والدراسات الأدبية

الطبعة الاولى

المطبعة الفاروقية الحديثة

١٤ شارع المنجلة بمصر

الاهـداء

لمعالى ابراهيم دسوقى أباظة باشا أياد بيضاء على النهضة الأدبية فى مصر والشرق العربى ؛ فقـد شمل الادب والادباء برعايته وتشجيعه وعطفه ، وجاهد فى الميدان الأدبى جهادا خالدا لاينسى . فاليه اعترافا بفضله أهدى هذا الـكتاب ؟

محمد عبد المنعم خفاجى
الاستاذ بكلية اللغة العربية

التشبيه

عنصر من عناصر الأسلوب وبلاغته ، يعتمد على التصوير والبيان والتمثيل والتشخيص .

وهو فن واسع من فنون الكلام ، أداته المشاهدة والخيال ، وغايته رسم صور دقيقة لكل ما يدركه الحس أو العقل أو الوجدان ، سواء كانت هذه الصور بأداة من أدوات التشبيه أو جيء بها على سبيل الاستعارة والتمثيل .

وزعيم التشبيه فى العصر الجاهلى أمرؤ القيس ، وفى العهد الاسلامي ذو الرمة ، وفى العصر العباسى شاعرنا أبو العباس عبد الله ابن المعتز ، ويليه فى منزلته الفنية فى باب التشبيه ابن الرومي الشاعر العباسى المشهور .

وقد تدرج فن التشبيه منذ العصر الجاهلي حتى اليوم ؛ فحاول تصوير البيئة والحياة الاجتماعية ومناظر الطبيعة وتمثيل مظاهر الحضارة ، فى شتى العصور والأجيال ، وقد يكون هذا الفن أكثر الفنون دلالة على حياة الأمم وحضارتها وثقافتها وتفكيرها ، لأنه مؤرخ صادق لمشاهد الطبيعة وروائع العمران ولحياة البدو والحضر والقرى والمدن والمجتمعات والشعوب ، وهو من ناحية البلاغة الأدبية فن واسع الأثر ، عظيم المدى فى الاستدلال والاقناع ، والتمثيل والتصوير ، والبيان والتعبير ، وإثارة المشاعر والعواطف والوجدانات .

فما أحراه بالدراسة لمعرفة حياتنا الماضية ، ومدى ما وصل إليه أجدادنا من حضارة وثقافة ، والاستدلال به على تاريخنا المجهول . فوق ما يرشد إليه التشبيه من أحكام فى الأدب والنقد والبيان والبلاغة هي موضوع بحثنا الآن .

ابن المعتز

منزلته وحياته :

وابن المعتز أديب ساحر ، وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التى نبغت فى القرن الثالث الهجرى ، وهو أمير التشبيه فى الشعر العربى : القديم والحديث .

يعد فى الطبقة الثالثة من المحدثين ، وهي الطبقة التى خلفت طبقة أبى نواس ، وطبقة بشار زعيم المحدثين .

ويعدون معه فى طبقته أبا تمام والبحترى وابن الرومي ، وإن كان بعض النقاد يجعل أبا تمام والبحترى طبقة وحدهما ، ويجعل ابن الرومي وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين .

ويقول ابن رشيق : «طبقة حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومي طبقة متداركة ، وتلاحقوا ، وغطوا على من سواهم من الشعراء (١) » . ويقول : « وليس فى المولدين أشهر اسما من أبى نواس ، ثم حب

(١) ٨٣ / ١ العمدة

والبحترى ، ثم تبعهما فى الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كأبى نواس فى المحدثين ، وامرىء القيس فى القدماء (١) » .

ولد ابو العباس عبد الله ابن المعتز فى شعبان سنة ٢٤٧ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلكان ، فى بيت الخلافة ، وولى والده المعتز بن المتوكل ابن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ ، ومكث فيه ثلاث سنين قتل بعدها بيد الأتراك ، الذين كان فى يدهم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة ، وكان لنكبة والده أثر عميق فى حياته ونفسيته .

تلقى ثقافته فى الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها ، الذين حفل بهم هذا العصر الزاخر بألوان العلوم والثقافات والآداب ، وكان من أساتذته المبرد م سنة ٢٨٥ هـ ، وثعلب م سنة ٢٩١ هـ وسواهما من فحول العلماء .

وظهرت شاعريته فى أول عهده بالشباب ، فامتلأت بها حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البليغ الساحر والشاعر المجيد ، والناقد الواقف على خصائص الأدب والبيان ، وله مؤلفات كثيرة جيدة ، منها : كتاب البديع ، وفصول التماثيل ، وطبقات الشعراء ؛ وديوانه مطبوع فى جزئين فى مصر والشام .

عاصر ابن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسين هم : المهتدى (٢٥٥ – ٢٥٦) ، والمعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩) ، والمعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩) ، والمكتفى (٢٨٩ – ٢٩٥) ؛ وعاش بينهم معتزا

---

(١) ٨٢/١ العمدة

بشخصيته ، نبيل النفس ، عظيم الخلق ، يظهر انصرافه عن الخلافة ، وهو فى نفسه ناقم على الحياة التى ملكت سواه مقاليدها ، وقبض عليه عدة مرات أطلق فيها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول فى شعره :

من يشترى حسبى بأمن خمول من يشترى أدبى بحظ جهول ؟

ولما مات المكتفى عام ٢٩٥ هـ ، ولى الأتراك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا ، فثار الناس فى بغداد ، وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام ٢٩٦ هـ ، ومكث فيها ليلة واحدة . حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة ، تؤيده القوة الحربية فى الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ هـ ، وبذلك انتهت حياة شاعر كبير ، من شعراء العربية المعدودين .

بيئته :

عاش ابن المعتز فى بغداد وسر من رأى ، فى البيئة العامة التى امتاز بها القرن الثالث ، والتى حفلت بألوان الحضارة ، وشتى فنون العلوم والثقافات والآداب ، كما عاش فى بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعيم والمجد ، فى قصور الخلفاء والأمراء ، وكان لذلك كله أثره الواضح فى شخصيته وشاعريته .

شاعريته وخصائصها :

ارهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته ، مشاعره

ووجدانه وإحساسه ، فنشأ شاعرا بطبعه ، ملهم الشاعرية ، قوى الملكات .

ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره وما يختلج فى صدره من آمال وآلام ، وما تزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة فشعره إذاً صورة لحياته الخاصة أولا ، ولحياة الطبقة المترفة ثانيا ، وللاتجاهات العليا فى السياسة والاجتماع والآداب أخيرا . وهو فوق ذلك صورة صادقة للفن الخالص ، الذى يؤمن بالفن للفن لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنية خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لجد ، أو لمال ، أو لرضاء خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ، ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه .

أجاد فى الشعر السياسى ، كما أجاد فى الفخر ، والأخوانيات ، والغزل . وخمرياته فيها دقة معان ، ورقة تصوير ، وكثرة تشبيهات(١) ، وكذلك كان فى الصيد والطرد مجيدا مبدعاً ، يقتفى فيه آثار امرىء القيس وأبى نواس . والعتاب والشكوى من الفنون الشعرية التى تفوق فيها ، وكذلك بلغ ابن المعتز فى الوصف أحد الجودة والابداع ورسم صورا صادقة لكل ما وقعت عليه عينه ؛ من مناظر الطبيعة ومظاهر الحضارة ، ووصفه وصف وجدانى ، له موسيقى عذبة ، وفيه رقة وسلاسة ، وروح وطبع ، ودقة وعمق ، وابتداع فى الأسلوب

(١) وفنه فيها يقف بجانب فن أبى نواس فى خمرياته ، وسيأتى تحليل لبعضها .

وتجديد فى التشبيه والاستعارة ، وقد نمى ملكته فى نفسه دقة حسه ، ولطف شعوره ، وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال ، وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه يقول الشعر إرضاء لنفسه ، وتصويرا لحسه ، مما صرفه إلى وصف الطبيعة ، ومجالس الأنس ، ومطارد الصيد . أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلا ، ترك الزهد لأبى العتاهية ، والرثاء لأبى تمام ، والهجاء لابن الرومي ، والمدح للبحترى ، وعاش هو شاعر الترف والفن والجمال . وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق (١)

ومعانى ابن المعتز تتصل بنفسه وحسه وحياته ، وهو فيها دقيق الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير ، مجدد مبتكر حينا ، ومقلد أحيانا أخرى .

وخياله الشعرى خيال واقعى ، يستمد من صور الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ، ما ينطق به من معنى ووصف وتصوير ، وخياله النشط يعنى بمحسات الأمور ، ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجرى وراء عالم المثل والمعنويات .

ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته ، وبالرونق والعذوبة ، فى جزالة تشيع فى أعطافه حينا ، وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحيانا ؛ ومع جمال فى ترف البيان وألوان البديع ، مما حذا فيه حذو بشار ومسلم وأبى تمام ، وتشيع

---

(١) العمدة ١ / ١٦٣

فى أسلوبه الصياغة الفنية ، الممتلئة روحا وحياة وموسيقى ، ووضوحا فى دقة تصوير ، وقرب مأخذ وجودة قريحة فى بعد فكرة وجدة خيال كما يقول :

والصبا ممتلىء حاجة وأملا

والمدرسة الأدبية التى يمثلها ابن المعتز ، هي مدرسة المحدثين ، التى قاد زمامها أبو تمام والبحترى ، والتى امتازت بميزتين :

الأولى : هي التعمق فى المعانى واستنباطها ، مما يتجلى لك فى شعر أبى تمام وابن الرومي واضحا ملموسا .

والثانية : هي الصناعة الشعرية المتأنقة ، التى تطلب ألوان الجمال فى الأداء ، وتعتمد على الترف البيانى فى الأسلوب ، من : جناس وطباق ، وتشبيه واستعارة وتمثيل ، وكانت العرب — كما يقول ابن رشيق — « لا تنظر فى أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، أو تترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما فعل المحدثون ولكن كان نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وما وقع فيه من هذا النوع فعن غير قصد ولا تعمل ، مما عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيف والتنقيح ، وأول من فتق البديع للمحدثين بشار وابن هرمة ، ثم قلدهما فيه مسلم والعتابى ، والنمرى وأبو نواس ؛ واتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وابن المعتز . فانتهى

علم البديع والصنعة إليه . وختم به (١) . فابن المعتز إذاً هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المتكلفة .

فقد كان يحب الفن للفن ، وينظم الشعر ليلهو به ، وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين ، وكان متكلفا مجيدا فى تكلفه ، بقدر ما كان الوليد مطبوعا مجيدا فى طبعه ، ويصف ابن رشيق صنعته فيقول : «وما أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز . فان صنعته خفية لطيفة ، لا تكاد تظهر فى بعض المواضع ، إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى ألطف أصحابه شعرا ، وأكثرهم بديعا وافتنانا ، وأقربهم أوزانا وقوافى ، ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب (٢) .

ويقول الجرجانى فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ، ولم يكن من المطبوعين (٣) ؛ وكان الجرجانى يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع .

ويقول أبو الفرج فى وصف شعره وخصائصه : هو وإن كان فيه رقة الملوكية ، وغزل الظرفاء ، وهلهلة المحدثين ، فان فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين ، وليس يمكن واصفا لصبوح فى مجالس اللهو بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والرياحين إلى غير ذلك أن يعدل بذلك عما يشبهه من

---

(١) ١٠٨ – ١١٠ / ١ العمدة

(٢) ١٠٩ / ١ العمدة .

(٣) ٢٦٢ أسرار البلاغة .

الـكلام البسيط الرقيق ، الذى يفهمه كل من حضر ، إلى جيد الـكلام ووحشيه ، وإلى وصف البيد والمهامه ، والظبى والظليم ، والناقة والجمل ، والديار والقفار » . والأصفهانى يشير بذلك إلى أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد جزل كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالبا ترجع إلى حياة الملك التى تستلزم الترف ، وإلى وصفه لألوان اللهو التى تستدعى رقة الأسلوب ، وإلى بعد نفسية الشاعر غالبا عن أغراض الشعر البدوى ، فرقة شعر ودقة تشبيهاته ذا أثر من آثار البيئة فيه .

ويقول ابن شرف القيروانى فى رسالة الانتقاد : ابن المعتز ملك النظام له التشبيهات المثلية والاستعارات الشكلية والاشارات السحرية والافتخارات العلوية ، والغزل الرائق ، والعتاب الشائق ، ووصف الحسن الفائق .

التشبيه فى شعر ابن المعتز :

وطارت شهرة ابن المعتز الادبية والفنية فى باب التشبيه وأتى فى ذلك بما سحر الناس وخلد فى صفحات الشعر والأدب . وسار المثل فى القديم والحديث بتشبيهات ابن المعتز لأنها أظهر سمة وأبلغ تعبير عن شاعريته وتصوير لفنه ، وفى الحق أننا لا نجد التشبيه ملكة من الملكات الفنية عند شاعر من الشعراء كما نجده عند ابن المعتز ولا نجد هذه الكثرة مع تلك الجودة عند أحد سواه ، وكان ابن المعتز

يقول : إذا قلت كأن ولم آت بعـدها بالتشبيه ففض الله فمى (١) .

وجميع النقاد يعترفون لابن المعتز بمكانته الأدبية الكبيرة فى باب التشبيه ، يقول الباقلانى : وأنت تجـد فى شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذى يشبه السحر وقد تتبع من هـذا ما لم يتبع غيره واتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء (٢) ، ويقول الثعالبى : تشبيهات ابن المعتز يضرب بها المثل فى الحسن والجودة ويقال إذا رأيت كاف التشبيه فى شعره فقد جاءك الحسن والاحسان ولما كان غذى النعمة وربيب الخلافة ومنقطع القرين فى البراعـة تهيأ له من حسن التشبيه ما لم يتهيأ لغيره ممن لم يروا ما رآه ولم يستحدثوا ما استحدثه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات . وبهذا المعنى اعتذر ابن الرومى فى تصوره عن شأو ابن المعتز فى الأوصاف والتشبيهات وقلائد تشبيهاته ولطائف تمثيلاته أكثر من أن تحصى (٣) .

ويقول المطوعى : جـل كلام ابن المعتز فى التشبيه عن أن يمثل بنظير أوشبيه (٤) . ويقول العباسى : هو أشعر الناس فى

---

(١) ١٤٦/١ معاهد التخصيص . ٦٩٣/١ دائرة المعارف للبستانى . ومقدمة ديوان ابن المعتز المطبوع ببيروت وينسبها الرافعى لذى الرمة (٢٥/٣ الرافعى) وهو غير صحيح .

(٢) ٢٠٧ إعجاز القرآن للباقلانى .

(٣) ١٨٢ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب .

(٤) ١٧٤/١ زهر الآداب .

الاوصاف والتشبيهات (١) . ويقول ابن رشيق : وقالت طائفة الشعراء ثلاثه : جاهلى وإسلامى ومولد ، فالجاهلى امروء القيس ، والاسلامي ذو الرمة . والمولد ابن المعتز قال ابن رشيق : وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر (٢) . ويقول : ولا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ويسهل عليه تناولها كابن المعتز فى التشبيه (٣) . ويقول الحصرى : وليس بعد ذى الرمة أكثر افتنانا وأكبر تصرفا فى التشبيه من ابن المعتز (٤) ويقول الدميرى : وهو صاحب التشبيهات التى أبدع فيها ولم يتقدمه من شق غباره (٥) . ويشيد بتشبيهاته كثير من الباحثين (٦) . وقد وضع عبد القاهر هذه التشبيهات موضع الدراسة والنقد وأشاد بها فى أسراره . وتوضع تشبيهات ابن المعتز مع روائع الشعر العربى ، قال الخوارزمي : من روى حوليات زهير واعتذاريات النابغة وخمريات أبى نواس وزهديات أبى العتاهية ومراثى أبى تمام

---

(١) ١٤٦/١ معاهد التنصيص .

(٢) ٨٢/ج١ العمدة

(٣) ٢٥٥/ج١ .

(٤) ٢١٩/ ج١ زهر .

(٥) ٨٣/ج١ دميرى .

(٦) ٢٢٢/٢ شذرات . ٢٧٠ الوسيط ، ٢٨٤ العصر العباسى للسباعى بيومى ، ٢٤٩ رسائل البلغاء .

ومدائح البحترى وتشبيهات ابن المعتز ثم لم يخرج إلى الشعر فالموت أولى به ويقول بعض المحدثين : فتن الناس ابن المعتز بتشبيهاته كما أسكرهم أبو نواس بخمرياته (١)

وقد قلده الشعراء فى فن التشبيه وساروا على نهجه فيه . فكان تميم بن المعز يحتذى حذو ابن المعتز فى التشبيهات ويقف بجانبه ويفرغ فيها على قالبه (٢) . وكان العقيلى أبو الحسن على بن الحسين من أئمة المدرسة التى تعنى بالتشبيه وتجيده وهو من شعراء القرن الخامس وسلك مسلك أبى نواس وابن المعتز فى الخمر وتوليد المعانى (٣) وكذلك احتذاه فى تشبيهاته : ابن وكيع الشاعر م ٣٩٣ (٤) هـ وأبو نواس والوأواء (٥) وابن خفاجة وسواهم .

ترجع بواعث هذه الملكة المصورة فى نفس ابن المعتز ، وأسباب تلك القدرة البارعة على تقدير الأشياء ، وعلى تشبيه بعضها ببعض الى : ذهنه الخصب ، وعقليته الناضجة وثقافته الواسعة ، وإلى إحساسه الدقيق ، ومشاعره المرهفة ، وهيامه الفنى بتذوق الجمال

---

(١) ويشد بها كثير من علماء الأدب والبيان .
(٢) ١٨٣ / جـ ١ زهر .
(٣) ٢١٤ / جـ ا ظهر الاسلام .
(٤) راجع ١٥٢ المثل السائر .
(٥) شاعر مطبوع منسجم الالفاظ عذب العبارة حسن الاستعارة جيد التشبيه (١٤٦ / ٢ فوات الوفيات) .

وتصوره وتصويره ، وإلى مظاهر الحضارة وترف الحياة التى عاش فيها وإلى مذهب الصنعة الشعرية الذى آثره ، ليدل بترف الأسلوب على ترف الخيال والفكر والحياة ·

أوصاف التشبيه فى شعر ابن المعتز :

ويمكننا أن نصور التشبيه فى فن ابن المعتز ، تصويرا واضحا ، على نمط من التفصيل ، فنقول : إنه يمتاز بميزات كثيرة ، أهمها ما يأتى :

أولا : كثرة التشبيهات فى شعره كثرة هائلة ، حتى لا تخلو قصيدة من قصائده ، ولا قطعة من مقطوعاته من عدة تشبيهات نادرة ساحرة ، وكانت هذه الملكة القوية ظاهرة ملموسة فى فن ابن المعتز فى سائر شعره ، وشتى أغراضه ، وإن كثر ظهورها فى أوصافه وخمرياته وغزله وطرده ، وهو فى هذا يبذ جميع الشعراء ، الذين لم يكثر التشبيه فى شعرهم هذه الكثرة ، فقد « عكف ابن المعتز على التشبيه ، وأفرغ فيه جهده ، وراح يوشى به شعره ، ويطرز به قصائده ، ويظهر فيه براعة معدومة النظير »

ثانيا : وتشبيهات ابن المعتز تشبيهات حسية يعنى فيها بتصوير المحسات ، وباخراجها فى مظاهر حسية يستمدها من بيئته ، هو يصور مظاهر الطبيعة وشتى ألوان الحضارة المادية ، فى صورها ، سحرها وجمالها الفنى الرائع . وقلما يعنى بتصوير الوجدانيات والعقليات . لأن خياله لم يؤثر أن يتجاوز نطاق الحياة المادى ومجالها الحسى إلى دائرة التخيل والتصوير للحقائق المجردة البعيدة عن مظاهر الاحساس

فى الحياة ، وفاضت صنعته ـ كما يقول بعض المحدثين (١) ـ بأصباغ الزخرف الحسى . الذى لم يغص فى بحار الفلسفة . وهي مع ذلك تفيض رقة ، وتسيل عذوبة ، وتمثل الحضارة المترفة فى أروع صورها وأجلها . مما يفيض بالخيال الرائع ، ويبرز مكامن هذه الحياة المترفة التى نشأ فيها وخالطها ابن المعتز ، بما فيها من مداهن التبر ، وأوانى الفضة وصحاف الذهب المحلاة بأنواع الجواهر الكريمة ، واللآلى النادرة حتى ليخيل إلى القارىء أن هذا الصبغ مع عذوبته وعدم بلوغه حد التكلف قد استحال على يد ابن المعتز ، إلى صبغ آخر جديد . وذلك هو سر تفرده فى هـذا اللون » . ثم هذه التشبيهات الحسية يدور أكثرها على الأشياء المدركة بحاسة البصر ، أكثر من سواها من الحسات ؛ ولابن المعتز فن مستقل فى تصوير الألوان خاصة من بين سائر المبصرات ، يبلغ فيه غاية الجودة والاحسان ؛ وسيأتى كثير من مثل ذلك فى شعره وتشبيهاته . وكان ابن المعتز إذا اضطر الى تشبيهات عقلية . استمد صورها من المظاهر الحسية فى غالب الاحايين فيقول :

رددت إلى التقى نفسى فقرت كما رد الحسام إلى القراب

أو يقول :

اصبر على مضض الحسود فان صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

أو يقول :

فى ليلة فيها السماء مرزة سوداء مظلمة كقلب الكافر

(١) ٧٨ و ٨٠ الصبغ البديعى فى اللغة العربية مخطوط

أو يقول :

لا تجمعو بالله ويحكموا غلظ الوعيد ورقة الوعد

ثالثا : وابن المعتز فى تشبيهه مصور بارع ، ينقل لك بريشته على صفحة شعره البديع صورة مطابقة كل المطابقة لما يصوره من أشياء ، هو فنى فى تصويره ، وغنى بخياله المصور ، وذهنه الخصب ، الذى يقدر الأشياء ، ويقدر الصور بمقدارها ، ثم يخرجها تشبيها شعريا يمثل أصله فى كل خصائصه التى أرادها الشاعر ، وصوره من أجلها ، ثم هو لم يحب أن يمثل عواطفه فى تشبيهاته . لئلا تخرج عن حقائق الأمور التى تمثلها أمام العقل ، وفى رؤية البصر ، ثم هو يظهر لك أصباغ صوره كلها دون أن يمزجها بعضها ببعض ، أو يلونها بلون خاص .

رابعا : وظاهرة أخرى فى تشبيهات ابن المعتز هي دقة التصوير التى امتاز بها وبلغ فيها منتهى الأجادة وتقدم بها كثيرا من الشعراء الوصافين . كان يوضح الشبه بين الشيئين توضيحا بالغا مهما اختلفا فى الجنس وتباعدا فى الخيال ، وكثيرا ما كان يجمع أعناق المتنافرات فى ربقة ، ويعقد بين المتباينات معاقد النسب والألفة مما يدل على دقة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر ومما يعطيه الناقد فى كثير منه منزلة الحاذق الصانع والمصور الملهم الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعة حتى صار إماما فيه وأمسى من بعده عيالا عليه ، وتبعاً له ، فالبنفسج زهر غض يرف تبصر فيه زرقة أوراقه وحمرة ساقه يشبهه ابن المعتز لا بزهر مثله ولا بنبات آخر شبيه به ولكن يشبهه بلهب نار لايستطيع سوى الحاذق أن يتخذ منه له مثالا ، ثم لم يكتف بذلك ، بل دق فى التصوير ، ونظر نظرة خاصية غريبة ، فشبهه بزرقة

النار ، أول ما تشتعل فى الكبريت ، فبلغ غاية التصوير ، وملك زمام الاجادة . حين يقول :

ولاز وردية تزهو بزرقتها　　بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها　　أوائل النار فى أطراف كبريت

والبرق فى حركته واستطالته فى أثناء وميضه ، يشبهه ابن المعتز بالفرس ، ثم يدق فيجعل الفرس بلقاء ، ثم يدق فيجعلها تمرح وتجول . ليكون قد راعى ما به يتم الشبه ، وهو معظم الغرض من تشبيهه ، وهو هيئة حركته . وكيفية لمعه . فيقول :

وترى البرق عارضا مستطيلا　　مرح البلق جلن فى الأجلال

والصبح حين يظهر فى حواشى الظلمة ويدفع الليل دفعا يشبهه ابن المعتز بأشخاص الغربان . ولكنه يجعل الغربان بيض قوادم الريش ، ثم يجعل الغربان ذاهبة فى الفضاء . طائرة فى جو السماء . يدفعها الخوف لا الرجاء . فيبدع فى ذلك كله غاية الابداع حين يقول :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى　　نطير غرابا ذا قوادم جون

فيجيد الشبه والتصوير . وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه . فى أن جعل ضوء الصبح . لقوة ظهوره . ودفعه لظلام الليل . كأنه يحفز الدجى ويستعجلها . ولا يرضى منها بأن تتحول فى حركتها . ثم صور ذلك كله . فى قوله : « نطير غرابا » دون أن يقول غراب . أو غراب يطير ، وذلك لأن الغراب وكل طائر إذا كان هادئا واقفا فى مكانه فأزعج وأخيف وأطير منه كان ذلك أسرع لطيرانه . ومسيره إلى حيث لا تراه العيون ، وليس كذلك إذا طار عن اختيار لأنه يجوز أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول .

وكذلك يقول ابن المعتز وهو من أغرب ما قاله محدث :

وقد دفع الفجر الظلام كأنه ظليم على بيض تكشف جانبه

والشمس فى تموج شعاعها وفى إشراقها واستدارتها يشبهها ابن المعتز بتموج نور المرآة . ولا يقنع بذلك بل يجعل المرآة فى كف الأشل ويقول : والشمس كالمرآة فى كف الأشل . ويصور أشعة الشمس فى تلألؤها وإشراقها ووقوع أشعتها على الأرض فيقول فى إجادة :

وشارق يضحك من غير عجب كأنه صب على الأرض ذهب

ومن عجيب التصوير ودقيق التشبيه . وبليغ القول فى سرعة الفرس قوله

كأن جنان الفلاة تضربه كأن ما يهرب منه يطلبه

إلى آخر هذه التشبيهات الكثيرة الجيدة الصنعة والاتقان .

خامسا : وابن المعتز يصبغ على صوره فى التشبيه ظل حياته المترفة المنعمة بألوان النعيم . فيشبه الآذريونة بكؤوس الذهب التى يحفظ فيها الطيب وفيها بقية منه ويشبه النرجس بكؤوس الدر التى فى حشوها العقيق . ويشبه العنب بمخازن البلور : إلى آخر هذه الأوصاف التى استمدها الشاعر من حياته وبيئته .

القيمة الأدبية لتشبيهات ابن المعتز :

وهذا عنصر أدبى من عناصر الحديث عن تشبيهات ابن المعتز ومجال الكلام فيه ضيق عسير إلا على فحول النقاد . ولكن سأسير فيه إلى منتهى غايات البحث . بتوفيق الله ورعايته فأقول :

أولا : لابن المعتز تشبيهات مبتكرة لم يحم حولها أحد . وسأشير هنا إلى بعضها .

قال ابن المعتز فى وصف سقاة الراح :

وتحت زنانير شددن عقودها زنانير أعكان معاقدها السرر

وهذا تشبيه ما نعلم أنه سبق إليه . يشبه بالزنانير المربوطة على خصورهن والمعقودة فوقها ؛ هذه الثنيات التى فى أجسادهن والتى يجعل السرر عقدا لها . وقال مبتدعا غير متبع فى وصف العنب :

كأنه مخازن البلور لم يبق منه وهج الحرور

إلا ضياء فى ظروف نور

وقال فى وصف الهلال ما لم يسبق اليه :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقال فيه أيضا :

كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

ويقول فى الثريا ما لم يسبقه أحد إليه على كثرة ما وصفوا الثريا

وقد لمعت بين النجوم كأنها قوارير فيها زئبق يترجرج

ويقول فى وصف السراب وسط الصحراء ، مالا يعرف النقاد تشبيها فى معناه ، أحسن أو أصوب منه :

والآل ينزو بالصوى أمواجه نزو القطا الكدرى فى الاشراك

ويشبه الشرب جلوسا فى مجلس الراح ، والسقاة وقوفا بينهم تشبيها مبتدعا فيقول :

وكأن السقاة بين الندامى ألفات بين السطور قيام

إلى ما سوى ذلك من تشبيهاته الجديدة المبتكرة كتشبيه الآذريون

عداهن من ذهب فيها بقايا غالية . وتشبيه النرجس بكؤوس من الدر فى حشوهن عقيق الخ

ثانيا : ولابن المعتز تشبيهات بعضها استمد معانيها ممن تقدمه من الشعراء ولكنه زاد عليهم فى المعنى ، أو فى حسن السبك وسحر الاسلوب وبعضها الآخر وجد الشعراء قالوا فيها صورا فقال هو فيها صورا أخرى وهي كثيرة مبثوثة فى كل باب من أبواب شعره . وسأذكر عدة مثل لها :

قال عتيبة بن بجير يصف جوده ونهوضه إلى قرى ضيوفه وذبح إبله :

فقام أبو ضيف كريم كأنه ‏ ‏ وقد جد من فرط الفكاهة مازح

أخذه ابن المعتز فزاد فى المعنى وأبدع فى التصوير . فقال :

وقيدها بالنصل خرق كأنه ‏ ‏ إذا جد لولا ماجنى السيف مازح

فبلغ بقوله « وقيدها بالنصل » . وبقوله : « لولا ماجنى السيف » غاية الاجادة فى التصوير

ويقول البحترى فى صفة العناق :

ولم أنس ليلتنا فى العناق ‏ ‏ لف الصبا بقضيب قضيبا

أخذه ابن المعتز وزاد عليه فى المعنى وفى جودة التصوير . ورقة التعبير . فقال :

فلو ترانا فى قميص الدجى ‏ ‏ حسبتنا فى جسد واحد

وقال كثير :

أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا ‏ ‏ وسالت بأعناق المطى الاباطح

أخذه ابن المعتز فقال :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصـاره بوجـــوه كالدنانـير

فقوله « سالت عليه شعاب الحى » يقابل الشطر الثانى كله من بيت كثير . فهو أوجز . على أن « سالت عليه شعاب الحى » أبلغ فى التصوير من قول كثير

ومن أعجب التشبيه فى النار قوله :

وموقدات بتن يضرمن اللهب
يشبعنه من فحم ومن حطب
يرفعن نيرانا كأشجار الذهب

هذا تشبيه لا نظير له فى شعر الشعراء ، فليوضع مع التشبيهات التى ابتكرها ابن المعتز .

ويقول شاعر :

لا تعجبوا من بلى غلالته قـد زر أزراره على القمر

اخذه ابن المعتز ، فزاد عليه ، وأجاد فيه ، فقال :

يحرك الدل فى أثوابه غصنا ويطلع الحسن من أزراره قمرا

ويشبه الفرس بالنار فى عدوه ، ومن أجمع ماجاء فى ذلك قول ابن المعتز

فهو نار والدخان تراب مستطير وحصى الأرض جمر

ومن أجود ما قيل فى سمن الابل قوله :

لنا إبل ملء الفضاء كأنما حملن التلاع الحو فوق الحوارك

وليس فى شعر المحدثين فى الحية أجود من قوله :

كأنها حين تبدو من مكامنها غصن تفتح فيه النور والورق

وقال شاعر فى الهلال وتشبيهه بقلامة الظفر :

كأن ابن ليلته جانحا فسيط لدى الأفق من خنصر

أخذه ابن المعتز . فزاد وأجاد . وحسن معرضه . وسهل لفظه .. في قوله :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة إذ قدت من الظفر

وقال ذو الرمة :

وليل كجلباب العروس ادرعته بأربعة والشخص في العين واحد

أخذه ابن المعتز . ونقله إلى ما هو أحسن منه معنى . وأرق لفظا . فقال :

وليل كجلباب الشباب قطعته بفتيان صدق يملكون الأمانيا

« وجلباب الشاب » أبدع تصويرا من « جلباب العروس » وقال شاعر مبدع :

على حين أفنى القوم ضر من السرى وطارت بأخرى الليل أجنحة الفجر

أخذه ابن المعتز فقال :

إلى أن تعرى النجم من حلة الدجى وقال دليل القوم قد ثقب (١) الفجر

وقد أديم الفجر حتى ترفعت لهم ليلة أخرى كما حوم النسر

وقال أبو نواس في الراح :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

أخذه ابن المعتز فأجاد حين يقول :

من كميت كأنها أرض تبر في نواحيه لؤلؤ مغروس

ومن التمثيل القليل النظير قول ابن المعتز :

ويجرح أحشائي بعين مريضة كما لان متن السيف والحد قاطع

---

(١) ثقبت النار : اتقدت

وفى وصف الحديث يقول بشار :

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

وفى هذا المعنى يقول ابن المعتز فى محبوبته شرير ، فيحسن غاية الاحسان

(وشر) أحاديث عذاب لو أنه جنى النحل لم يمجج حلاوتها النحل

والناس كلهم شبهوا حلاوة الحديث حلاوة العسل . الا أن ابن المعتز زاد هذه الزيادة الجميلة .

وقال بعض العرب . يصف قوة رائحة الشراب :

كميت تكاد وإن لم تذق تنشى إذا الساقيان استدارا

فذكر أنها تسكر برائحتها . وهذا من المعانى القريبة . أخذه مسلم فقال

كفانى من شربها شمها فرحت أجرد ثوب الثمل

وقال ابن المعتز :

إن راحا قال الآله لها كونى فكانت روحا وريحا وريحانا
درة حيثما أديرت أضاءت ومشم من حيثما شم فاحا

فأجاد وأبدع كل الاجادة والابداع

وبعد فيطول بنا الحديث لو ذكرنا كل تشبيهات ابن المعتز . وما فيها من ابتداع . وما فى كثير منها من إجادة . وما قصر فى قليل منه عن الشعراء(١) . فلنكتف بهذا القدر فى هذا البحث . ففيما ذكرت

(١) وهو كثير وسيأتى بعضه ومنه قول ابى نواس :

بنينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتها بنجوم

أخذه ابن المعتز فقال :

وكأس من زجاج فيه أسد فرائسهن ألباب الرجال

زاد على أبى نواس فى المعنى . ولكنه ضعف عنه فى التصوير

كفاية . وهو يرشدنا إلى عدة نتائج لها أهميتها فى فهم التشبيه فى شعر ابن المعتز

أولا أن ابن المعتز كان ذا ملكة قوية فى التصوير والتشبيه . وكان يقصده قصد ويفتتن به افتتانا

ثانيا : أنه كان يقصد إلى أروع التشبيهات فى الشعر العربى . فيصوغها بفنه صوغا مختارا . ويخرجها إخراجا جيدا . أو يأتى بنظير لها فى التشبيه

ثالثا : أنه فيما حاكى فيه الشعراء منها مجيد . وفيما ابتكره من تشبيهات إمام الشعراء جميعا لايدركه منهم أحد

فن ابن المعتز فى موازين النقد الأدبى

أولا : العامة تشبه الورد بالخد والخد بالورد . وهو من المبتذل ، إلا إذا أضيفت إليه زيادة تنقله من العامي الى الخاصى ، أو ضم إليه معنى يشفع به . كما قال على بن الجهم :

عشية حيانى بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

وهذا من قصيدة ، مدح بها ابراهيم بن المهدى ، ولما سمع ابراهيم منه هذا البيت ، زحف حتى صار فى ثلثى الفراش ، وقال : يافتى شبهوا الخدود بالورود ، وأنت شبهت الورود بالخدود (١)

على أن فى بيت ابن الجهم زيادة تبعده عن الابتذال . وهو إضافة بعضهن إلى بعض . وقال ابن المعتز فى هذا المعنى . يصور بياض الورد وما فى جوانبه من احمرار :

---

(١) ١٥٨/٢ زهر الآداب

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

فأبدع فى التصوير والتشبيه . قال القاضى الجرجانى فى وساطته : ولو اتفق له أن يقول : حمرة فى جوانبها بياض لـكان قد طبق المفصل ووافق شبه الخجل (١) . قال عبد القاهر : إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك فى الورد . فشبه على طريق العكس . فقال : هذا البياض حوله الحمرة كهذه الحمرة حولها البياض فى وجنة الخجل (٢) . ويقول ابن رشيق : البيت من سوء المقابلة وإن عده القاضى الجرجانى غلطا فى التشبيه (٣)

ثانيا : ويقول أبو هلال (٤) :

ومن رديء التشبيه قول ابن المعتز :

أرى ليلا من الشعر على شمس من الناس

فالجمع بين الليل والناس رديء : وقد وقع هنا باردا

وأقول أنا : إن رداءة التشبيه إنما جاءت من أنه جعله شمسا فبالغ فى الشبه والتصوير ، ثم ناقض نفسه فى هذا الادعاء حين قال من الناس

ثالثا : ويأخذ بعض النقاد على ابن المعتز قوله فى وصف كتاب :

بشكل يرفع الأشكال عنه كأن سطوره أغصان شوك

(١) ١٥١ وساطه

(٢) ١٧٢ أسرار

(٣) ١٧ / ٢ العمدة (٤) ٢٤٩ الصناعتين

لأنه مدح الكتاب بجعل سطوره شوكا . وان كان لاحظ الشبه التام في صورته . لكنه بالذم أشبه (١)

وردى على هذا النقد : أن ابن المعتز إنما لاحظ الشكل في الشبه دون ماسواه .

رابعا : ويأخذ عليه بعض الكتاب . أنه لايزيد في تشبيهاته على أن يعطيك نسخة لما يرسم لك . دون أن يعبر في تصويره عن خلجات نفسه ومشاعره . فهو حين يشبه الهلال « بزورق من فضة أثقلته حمولة من عنبر » لا يزيد على أن يعطيك نسخة من صورة الهلال ، لا علاقة بينها وبين إحساسه ، ومع ذلك فلم يحسن في نقل نسخة تامة الشبه بالهلال . ويكفي أن تتصور الهلال في خيالك ثم تتصور بجانبه زورق ابن المعتز . لتدرك الفارق الكبير . وتعلم مقدار ماشوه ابن المعتز من منظر الهلال الجميل . وكذلك قوله في الهلال أيضا :

كمنجل قد صيغ من فضة   يحصد من زهر الدجى نرجسا

فضلا عن أنه لا تشابه بين الهلال والمنجل إلا في الشكل الخارجي . ولاصلة بينهما في الطبيعة إلا صلة النظرة البصرية . فضلا عن ذلك فقد راح ابن المعتز يصنع المنجل من الفضة . ثم يجعله يحصد النرجس . وليكن لهذا النرجس زهر . وليكن هذا الزهر ثابتا في الدجى . وليس وراء ذلك كله شيء من العاطفة والاحساس أوإدراك

(١) ٢٥٢ طراز المجالس

شيء من خفايا الجمال . وأسرار العاطفة . وهذا نقد لا يقوم على أساس ويتخلص فيما يلي :

١ — أن البيتين السابقين لا يصوران الهلال تمام التصوير

٢ — أن التشبيه عند ابن المعتز فن خالص ولكن لا حياة فيه

٣ — أنه في تشبيهه بعيد الفكرة ، بعيد الوضوح

١ — وردي على الأول هو أن ادعاء عدم تصوير البيتين للهلال تصويرا تاما سفسطة ويناقض الناقد نفسه فيه ، ولما شبه هوجو الشاعر الفرنسي الهلال بمنجل من ذهب راع أعلام الأدب الفرنسي فكيف يراعون لو كانوا يعلمون بما أتى به ابن المعتز

٢ — وردي على الثاني هو أن فن ابن المعتز في التشبيه لا يخلو كله من التعبير عن عواطفه وشعوره ، وما خلا من ذلك فإنما كان الشاعر فيه يساير الفن الخالص ، لئلا تبعد الصور التي يرسمها عن حقائقها الموسومة ، وأي ضير على الفنان في ذلك ، وهل اتفق النقاد بعد على أن الفن تصوير ، وعاطفة تلون هذا التصوير بلونها الخاص ؟ اللهم لا ، على أن الفن وحده مهما سار في طريقه بعيداً عن العاطفة ، فهو وحده مظهر يستثير العاطفة والوجدان .

٣ — وردي على الثالث هو أن نظرية الوضوح والخفاء في الأدب ، لا تزال محل بحث النقاد الآن ، ولم يتفق عليها بعد اثنان ، فالجاحظ حين كان ينادي بالوضوح والافهام ، وبأن البليغ من الكلام ما كان معناه الى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك ، إنما كان يدعو إلى أن يجتهد المتكلم في تهذيب اللفظ وترتيبه ، وصيانته من كل ما أخل

بالدلالة ، وعاق دون الابانه ، ولم ير أن خير الكلام العامي المرذول ؛ والقاضى الجرجانى لم يحاسب المتنبى فى وساطته على عمقه فى التفكير والتصوير ، لأن ذلك سمة عامة فى شعر المحدثين ، وعبد القاهر فى أسراره يقسم الغموض إلى ما سببه التعقيد فى الأداء فيرده ، وإلى ما سببه لدقة فى المعنى فيشيد به ، ويرى أن المعانى الشريفة لابد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق ، ورأى بعض الباحثين من المحدثين : أن الغموض فى فن المتنبى هو سر عبقريته الشاعرة ، التى ارتفعت به إلى مقام الخالدين من الشعراء ؛

وتحدث كذلك ناقد آخر ، عن قصيدة المقبرة البحرية للشاعر الفرنسى بول فاليرى ، وكيف أنها أثارت اهتمام النقاد جميعا فى فرنسا فلم يتفقوا على شىء حول مذهب الشاعر فى فن الشعر ، أو حول الوضوح والغموض فى فن الشاعر كما يسميه كثير من النقاد

وبعد فهذا ردى الموجز على هذا النقد الجرىء ، ولأنتقل إذا إلى العنصر الثالث من عناصر البحث فى هذه المحاضرة

ابن الرومى

منزلته وحياته

وابن الرومي شاعر مجيد . وعلم من أعلام القريض فى القرن الثالث الهجرى ، ويعد فى الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهي الطبقة التى كان من أبطالها : أبو تمام والبحترى وابن المعتز ، وورثت مجد الشعر بعد طبقة أبى نواس ، وكان لها منهجها الادبى الخاص ،

الذى يقوم على العناية بالصناعة الشعرية ، وعلى توليد المعانى وعمق الخيال .

ولد أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومي عام ٢٢١ هـ ، من أبوين مختلفى الأرومة ، فأمه تنحدر من عنصر فارسى ، وأبوه ينحدر من عنصر رومي كان يحتفظ بطبيعته الشاعر ويعتز به طول حياته ، كان مولى لحفيد من أحفاد الخليفة أبى جعفر المنصور ، وولد فى بغداد فى دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده فى طفولة الشاعر ، فنشأ ابن الرومي فى ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هو وأسرته على مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزود بقسط من ثقافة عصره ؛ فلم يلبث أن أحاط بكل ما يمكن أن يحاط به من العلوم والآداب ، ونبغ فى الشعر ، ونظم القريض وطارت شهرته فى سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تنفعه ، كان فقيرا يريد أن يعيش ، وجائعا يريد أن يأكل ، وظمآن يريد أن يروى ، وخلق الثياب يبحث عما يلبسه ، وقصد بشعره رجالات الدولة فى عصره مادحا فحرموه العطاء ، فعاش ساخطا على الحياة والأحياء

فى دولتى أنا مغصوب وفى زمنى عودى ظمىء بلا رى ولا بلل

كان شابا جميلا قوى الملكات ، مزودا بشتى ألوان الثقافة ، فلم يغنه ذلك شيئا فى حياته ، وكان يسمع ويرى حياة الترف التى يحياها فى عصره كثير من الناس ، فتمنى لنفسه حظا من النعمة ، فلم يحظ بطائل ، وهو الشاب الذى ذاق ألم اليتم والشاعر المرهف الاحساس فاشتد سخطه على الناس ، وأمطرهم وابلا من أهاجيه ، التى بغضته

إلى الكثير وزادت من آلامه فى الحياة .

تزوج فأعقب ثلاثة أولاد فقدهم جميعا . وفقد بعدهم أخاه ثم زوجته وأمه . فعاش حزينا مهموما .

وكانت هذه الحياة الحافلة بالأحداث سببا فى هذه الطيرة التى لازمت ابن الرومي طول حياته

عاصر المعتصم والواثق والمتوكل المنتصر والمستعين والمعتز . والمهتدى والمعتمد . وتوفى فى عهد المعتضد سنة ٢٨٣ . أو ٢٨٤ هـ كما يقول ابن خلكان

شاعريته وخصائصها

كان للدم الرومي وأثر الوراثة ، ولحياة الشاعر وبؤسه ، ولثقافته وبيئته ، ولمشاعره المرهفة ووجدانه الرقيق ، كان لذلك كله أثره البعيد فى شاعرية الشاعر وفنه الأدبى ، الذى كان صورة مكبرة لكل ألوان هذه الحياة . اجتمعت له دقة الملاحظة والاحساس ، وعمق الشعور بالمتناقضات فى نفسه وفى زمنه ، فولدت فى نفسه روح السخرية ، وأشاعت فى فنه هذا اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور ، وهو فن الهجاء ، الذى امتاز به الشاعر وأجاده ، حتى حين يهجو من لم يؤذه بشىء ، كما يقول يهجو مغنيا من قصيدة طويلة :

ومسمع لا عدمت فرقته   فإنها نعمة من النعم
مجلسه مأتم اللذاذات والقصـ   ـف وعرس الهموم والسدم
كأننى من طول ما أشاهده   أشرب كأسى ممزوجة بدمى

إذا الندامي دعوه آونة　　تنادموا كأسهم على الندم

وكان لبؤسه في الحياة وفقده كثيرا من الأعزاء ، أثر واضح في إجادته فن الرثاء ، وداليته في رثاء ابنيه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى　　فجودا فقد أودى نظيركما عندى

وكذلك جيميته في رثاء يحيى العلوى الذى قتل عام ٢٥٠ هـ وميميته في رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٢٥٧ هـ (١) . وشغف قلب ابن الرومى بالحياة ، وتطلعه إلى متعها ولذاذاتها ، وحياته في مظاهر الحضارة التى كانت تغمر عصره ، وأثر الوراثة في نفسه ، كل ذلك جعله من أعظم الوصافين في الشعر العربى ، وقصيدته في وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الاجادة ، ويقول منها :

ياخليلى تيمتنى وحيد　　ففؤادى بها معنى عميد

غادة زانها من الغصن قد　　ومن الظبى مقلتان وجيد

تتجلى للناظرين إليها　　فشقى بحسنها وسعيد

تتغنى كأنها لا تغنى　　من سكون الأوصال وهي تجيد

مدفى شاؤصوتها نفس كاف　　كأنفاس عاشقيها مديد

فتراه يموت طورا ويحيا　　مستلذ بسيطه والنشيد

خلقت فتنة : غناء وحسنا　　ما لها فيهما جميعا نديد

هي شيء لا تسأم العين منه　　ولها كل ساعة تجديد

منظر، مسمع، معان من اللهـ　　ـو ، عتاد لما يحب عتيد

(١) ذاد عن مقلتى لذيذ المنام　　شغلها عنه بالدموع السجام

ء أمامك فانظر أى نهجيك تنهج　　طريقان شتى مستقيم وأعوج

وكذلك نونيته فى يوم المهرجان مثل ساحر لوصف ابن الرومي الجيد ومنها فى وصف المغنيات وآلات الغناء اللاتى يحملنها :

وقيان كأنها أمهات   عاطفات على بنيها حوانى
مطفلات وما حملن جنيناً   مرضعات ولسن ذات لبان
كل عود يدعى بأسماء شتى   بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه   وهو بادى الغنى عن الترجمان

إلى غير ذلك من روائع قصائده فى الوصف والتصوير ، كما أجاد فى وصف الخمر وفى وصف الأخلاق والعواطف ، ويبلغ فى العتاب الغاية فى الجودة ، كما فى قصيدته فى عتاب أبى القاسم الشطرنجى ، التى مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك اللقاء   أين ما كان بيننا من صفاء

وله آيات فى المدح تحوز الاحسان والاجادة ، ومنها نونيته فى أبى الصقر ، ومطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان   فيهن نوعان تفاح ورمان

ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم   كلا لعمرى ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرى شرف   كما علت برسول الله عدنان

ويمتاز ابن الرومي بتفضيله المعنى على اللفظ كما كان المتنبى ، فهو يطلب صحة المعنى ولا يبالى حيث وقع من هجونة اللفظ وخشونته ، كما يقول ابن رشيق (١) . كان بديع المعانى بعيدها ، كثير الاختراع

(١) ٨٢ / ١ العمدة

والتوليد فيها ، والاستقصاء لها ، لايترك فيها بقية لغيره ، والقدرة التامة فى تشقيق المعانى وتفصيلها هي أخص خصائص شاعرية ابن الرومي ، ويقول ابن رشيق فيه : « إنه أكثر الشعراء اختراعا للمعانى »

أما أسلوبه فجمع بين الجيد والردىء وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت فى شعره أقل منها فى شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومي يعنى بتهذيب شعره وتنقيحه ، ولو أسقط رديئه لكان فى ذلك أجود الشعراء ؛ وفى الغالب أن شعراء المعانى كابن الرومي وأبى تمام ، قلما تنهض ألفاظهم بأداء معانيهم ، وقد كان ابن الرومي لا يحفل باللفظ إلا بقدر أداء المعنى . وتمتاز قصائده بطول النفس ، مما لا يجاريه فيه إلا ابن هانىء الأندلسى ، وقد ساعده على الأطالة أسلوبه الخاص فى تناول كل معنى من معانيه بالأفاضة والشرح ، وتقليبه على كل نواحيه كما تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة فى تأليفها ، حتى لكأنها قطعة واحدة ، مؤلفة تأليفا منطقيا لاعوج فيها ولا ضعف ولا استطراد

وخياله خيال يقظ ، حسى فى غالب شعره ، يترك الحس إلى عالم العقل أحيانا ، أوتى ملكة التصوير ولطف التخيل ، وبراعة اللعب بالمعانى والأشكال .

ولا تكاد تجد شاعرا اختلف النقاد فى منزلته الأدبية مثل ابن الرومى ؛ أهمله صاحب الأغانى إهمالا ، يعلله بعض بالخصومات الأدبية التى كانت بين ابن الرومي والأخفش ، أستاذ أبى الفرج ، ويعلله آخر بأن ابن الرومى كان شيعيا وأبا الفرج كان أمويا ، وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومي كانت لاتزال متأججة اللهب ، لأهاجيه

فى رجالات الدولة ، وأعلله أنا بأن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومى فى الشعر ، ونهجه فى نظم القريض . ويقول القاضى الجرجانى عنه فى وساطته : « وقد نجد كثيرا ينتحل تفضيل ابن الرومي ، ويغلو فى تقديمه ، ونحن نقرأ القصيدة الواحدة من شعره ، وهي قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين . ثم قد تنسلخ قصائد منه ، وهي واقفة تحت ظلها جارية على رسلها (١) ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافى ، وانتظار الفراغ منها (٢) » ويقول ابن رشيق فى عمدته : « وأما ابن الرومى فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه ، وقد غلب عليه الهجاء (٣) » . ويقول ابن شرف القيروانى فيه : « وابن الرومى شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله فى الهجاء ، ماليس له فى الأطراء . ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن (٤) » . ويقول المعرى عنه فى رسالة الغفران : « وابن الرومى أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة (٥) » . ويقول فيه ابن خلكان : « هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ، ويبرزها فى أحسن

(١) الرسل : التؤدة
(٢) ٥٤ وساطة
(٣) ٢٥٥ / ١ العمدة
(٤) رسائل الانتقاد
(٥) ١٦١ - ١٦٤ رسالة الغفران

صورها ، ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » . ويقول المسعودى فيه : « كان من مختلق معانى الشعر ؛ والمجودين فى القصير والطويل ، وكان الشعر أقل أدواته » ، وقد أشاد به أدباء العصر الحديث وعدوه شاعر الفن والتصوير فى الشعر العربى ويقول ناقد من المحدثين : إنما جنى عليه وغربه عند أهل عصره ، وفى أذواقهم ، تفرده ، ووحدة ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألفوه ولم يطربوا له ، طربهم لأشباهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعانى على طريقتهم (١) ؛ وقد صور ابن الرومي رأيه فى شعره فى قصيدته التى يقول فيها :

قولا لمن عاب شعر مادحه ... أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء (٢) والخشب ... اليابس والشوك دونه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق ... رب الأرباب لا البشر
فليعذر الناس من أساء ومن ... قصر فى الشعر ، إنه بشر

التشبيه فى شعر ابن الرومي :

وابن الرومي مع كل سمات شاعريته وخصائصها ، مصور يجيد التصوير ، ومشبه يأتى بروائع التشبيهات ، ورسام يرسم بعاطفته ومشاعره التى تشيع فى فنه صور الأشياء ، وشتى المحسات والوجدانيات نمى فى نفسه هذه الملكة ، وتلك القدرة الفنية : عواطفه المتأججة وإحساساته المرهفة ، وحبه للجمال ، وفتنته بالطبيعة ، مع خصوبة

(١) مقدمه ديوان ابن الرومى للعقاد
(٢) قشر الشجر

ذهنه ، وقوة خياله ، ونضج ملكاته ، وتنوع ثقافاته ، ومع ترف الحضارة التى كانت تغمر بيئته وعصره ، والتى عاش يستلهمها الخيال ، ويلتقط منها ومن الطبيعة شتى الصور والاشكال .

كل هذه الحوافز وسواها نمت فى نفس ابن الرومي ملكات التخييل والتصوير ، ونفحته بروائع الصور . وجيد التشبيهات

خصائص تشبيهاته الفنية :

ولتشبيهات ابن الرومي خصائص وسمات . غالبة عليه . ظاهرة فيه يمكننا أن نوضحها فيما يلى :

أولا : أجاد ابن الرومى وأكثر فى تشبيه الحسيات . أما المعنويات فصورها فى شعره قليلة مع إجادة بالغة . ومنها قوله :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله   وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لولم يقدر فيه بعد المستقى   عند الورود لما أطال رشاءه

وكذلك قوله :

وتدابيرك اللطاف اللواتى   هن أخفى من مستسر الهباء
لك مكر يدب فى القوم أخفى   من دبيب الغذاء فى الأعضاء
بل من السر فى ضمير محب   أدبته عقوبة الافشاء
أو دبيب الملال فى مستهامـ   ـين إلى غاية من البغضاء
أو مسير القضاء فى ظلم الغيـ   ـب إلى من يريده بالشقاء
أوسرى الشيب تحت ليل سواد   مستحير فى لمة سوداء

ويقول :

وكأن لذة صوته ودبيبها سنة تمشت فى مفاصل نعس

ويقول فى الشباب :

أخى وتربى وإلفى كان مولدنا معا وربتنى الأيام حيث ربى

ويقول ومدامة كحشاشة النفس لطفت عن الادراك والحس

وبعض هذه التشبيهات استمدها من مظاهر الحس والمحسات ثم كانت أبرز حاسة يتكىء عليها فى تصويره هي حاسة الابصار ؛ وبرزت من بين مرئيات هذه الحاسة الالوان خاصة ، فكان يبهرك فى هذه الفطنة الحسية حاسة اللون المتوهجة ، التى تطالعك فى كل وصف من أوصافه ، للحسان والازهار والراح ، وغيرها من المناظر التى تلامس البصر بألوانها ، فتراه يقول :

ليت شعرى أسحر عينيك داء القلب أم نار خدك الوهاج

ويقول فى الراح :

صفراء تنتحل الزجاجة لونها فتخال ذوب التبر حشو أديمها

لطفت فقد كادت تكون مشاعة فى الجو مثل شعاعها ونسيمها

ويقول فيها :

ثوت تصطلى شمس الظهائر برهة إلى أن أفادت لون شمس الاصائل

ويقول فى قوس قزح :

يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض

ومع ذلك فقد كان لحواسه الأخرى مساهمة فى فنه وتصويره ، فتراه يقول فى وصف الغناء :

وتراه يموت طورا ويحيا مستلذ قصيده والنشيد
فيه وشي وفيه حلى من النغـ ـم مصوغ يختال فيه القصيد

ويصف الحركات مع دقتها فيبدع ويجيد ، كقوله في وصف حركة الرقاق :

ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمي فيه بالحجر

ويصف حركة الري في النبات فيبدع حين يقول :

ويحور الخريف وهو ربيع وتسور (١) المياه في العيدان

ويصف الحركة البطيئة في سير السحاب المثقل بالماء فيقول :

حدتها النعامي(٢) مثقلات فأقبلت تهادى رويدا ، سيرها كركودها

إلى غير ذلك مما فيه صدق تمثيل للحركة في الجملة والتفصيل ، والتفات الشاعر هذا الالتفات الدقيق ، إلى كل لمحة من لمحات اللون والظل ، وإلى كل صغير وكبير من دقائق الأشكال والحركات ، دليل على أنه مطبوع على التصوير ، وقصدته النونية في المهرجان ، والتي مطلعها :

يمن الله طلعة المهرجان كل يمن على الأمير الهجان

مظهر لملكة التصوير عند ابن الرومي ، وهكذا ظهرت مقدرته البارعة في التشبيه والتشخيص ، في مظهرها الحسي المتعدد الصور والوان ، لأنه كان له عين تلمع فتعي ، ونفس تحس فتستوعب ، وخيال يبصر الجمال المنظور فيثرى بالألوان والسمات

---

(١) سورة الغضب : وثوبه
(٢) ريح الجنوب وهي أبل الرياح وأرطبها

ثانيا :

ويمتاز التشبيه فى شعر ابن الرومى بدقة التصوير ، فهو فطن دقيق الفطنة ، ملتفت الى كل ما تتطلبه صوره الشعرية من الالوان والأصباغ ، يحكم ظلالها وأضواءها ، ويلائم بين ألوانها وأشكالها ، ويخرجها صورة مكتملة الحياة فى كل جزء من أجزائها . يقول فى وصف أحدب :

قصرت أخادعه وطال قذاله　　　فكأنه متربص أن يصفعا

وكأنما صفعت قفاه مرة　　　وأحس ثانية لها فتجمعا

وهي دقة وفطنة بالغة لا نظير لها فى وصف الشكل والحركة ، فصورة الرجل وهو يتهيأ لأن يصفع ، ثم يتجمع ليتقى الصفعة الثانيه ، هي صورة الأحدب ، التى لاينقصها شىء ، ولا يعوزها زيادة ، وهكذا يحكم الشاعر خلق الصورة ، ويضحك بالمقابلة بين الشىء وشبيهه ، ولقد كان ابن الرومى فى مجال فنه ، لا تفوته من الاغراض فائتة ، فى اللفظ أو المعنى أو التصوير ، كما كان لا يفوته لون من الالوان التى تنسجها خيوط الشمس .

وكذلك يقول فى هجاء مغنية :

وإذا غنت بدا فى جيدها　　　كل عرق مثل بيت الأرضة (١)

فصور بقوله « فى جيدها » كل ما يمكن أن يبلغه التصوير ، وينأله التعبير ، وأراك القبح من حيث ترى سمات الحسن ، ووضع

---

(١) دويبة تأكل الخشب

يدك على العيب بعد أن وضع يدك على الجمال ؛ فكان ذلك أدعى لاعجابك بالتشبيه ، وسرورك بهذه الصورة الحاذقة

وكذلك يقول فى وصف أصلع :

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله

فيجيد ، ويدق فى التصوير

ويقول فى هجاء مغن :

وتحسب العين فكيه إذا اختلفا عند التنغم فكى بغل طحان

فيبلغ بالتصوير ، وبالسخرية فيه غاية الاتقان

ويقول فى صانع الزلابية :

يلقى العجين لجيناً من أنامله فيستحيل شبابيكا من الذهب

فيبدع التصوير أى إبداع

ويصور المغنيات يحملن أعوادهن على صدورهن ، فيقول :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوانى

ويصف افتنان الطبيعة فى توشية الرياض بألوان الزهر ، فيقول :

ورياض تخايل الأرض فيها خيلاء الفتاة فى الأبراد

ويصور بذل الوعد مع البخل بالعطاء تصويرا جميلا ، فيقول :

بذل الوعد للأخلاء سمحا وأبى بعد ذاك بذل العطاء

فغدا كالخلاف يورق للعين ويأبى الأثمار كل الاباء

ثالثا : وتمتاز تشبيهات ابن الرومي بأنه يفيض عليها من حياته وعواطفه

مايلبسها ثوب الحياة ، لأنه كان يحس الحياة بكل جارحة فيه ، فهو حين يصور الطبيعة يعيرها روحه ، ويفضى إليك بإحساسه فى تصويرها ، ويحاول أن يدمج هذه المحسات فى عواطفه ووجداناته ، وهذا من أبرز خصائصه فى فنه التشبيهى . والفرق عظيم بين شاعر يصف لك ما رآه كما قد تراه المرآة أو المصورة الشمسية ، وبين شاعر يصف لك مارآه وشعر به وتخيله ، وأجاله فى صدره ، وجعله جزءاً من حياته ، ومن أجل ذلك كانت الطبيعة فى تشبيهات ابن الرومي ، ليست مجرد صورة ولاحلية ، ولكنها جسم نابض بالحياة . يصف قدحا من أقداح الراح فيقول :

كفم الحب فى الحلاوة بل أحـ   لى وإن كان لا يناغى بحرف

ويقول فى وصف حالته فى شيبه :

لاح شيبى فرحت أمرح فيه   مرح الطرف فى العذار المحلى

رابعا : وقـد استمد ابن الرومي صور تشبيهاته ، من مشاهد الحياة التى تألفه ويألفها ، ويراها فى بيئته العامة والخاصة والتى هي فى متناول كل رجل ، يعيش فى مثل المجتمع الذى كان يعيش فيه ابن الرومي ، ويحيا حياته التى كان يحياها ، ثم يأخذ فى عقد تلك الصور ومزج تلك الأصباغ ، وتركيب هذه المواد المنتزعة من مظاهر حياته وبيئته

القيمة الأدبية لتشبيهات ابن الرومي

سنستعرض هنا بعض تشبيهاته ، لنرى مدى جودتها أومدى ما فيها من ابتداع وتجديد :

قال ابن الرومي فى امرأة ورقيبها :

ما بالها قد حسنت ورقيبها أبدا قبيح . قبح الرقباء
ما ذاك إلا أنها شمس الضحى أبدا يكون رقيبها الحرباء

وهي صورة شعرية غنية بنفسها عن الاعجاب والشرح

وأجود ما قيل فى الريق قوله :

يا رب ريق بات بدر الدجى يمجه بين ثناياكا
يروى ولا ينهاك عن شربه والماء يروى وينهاكا

فليس لهذا البيت نظير فى معناه

وقال فى الخمر والنرجس :

ريحانهم ذهب على درر وشرابهم درر على ذهب

فأجاد وأبدع فى إخراج هذه الصورة الساحرة .

وقال فى خبو الشمس حين غروبها :

كأن خبو الشمس ثم غروبها وقد جعلت فى مجنح الليل تمرض
تخاوص عين بين أجفانها الكرى يرنق (١) فيها النوم ثم تغمض

وهي صورة جيدة الشبه للشمس عند الغروب

ومن جيد تشبيهات أبى نواس وقد نبه نديما للصبوح قوله :

فقام والليل يجلوه الصباح كما جلا التبسم عن غر الثنيات

ولابن الرومي التقدم عليه بقوله فى الراح ، وقد أخذ أصل المعنى ونقله إلى وصفها :

فقال : يفتر ذاك السواد عن يقق من ثغرها كاللآلئ النسق
كأنها والمزاج يضحكها ليل تعرى دجاه عن فلق

(١) رنقه : كدره

وقال أبو نواس :

تبكي فتذري الدر من نرجس وتلطم الورد بعناب

أخذه سعيد بن حميد فقال :

وكأنما أثر الدموع بخدها طل تساقط فوق ورد يانع

وقال البحترى فى هذا المعنى :

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابى فى خدود الخرائد

وقال ابن الرومى فى دموع المحبين وقت الوداع :

كأن تلك الدموع قطر ندى تقطر من نرجس على ورد

فأجاد وأبدع باختصار اللفظ وحسن السبك

ومن الأبيات الجامعة فى المدح قول ابن الرومى :

هو الغرة البيضاء من آل هاشم وهم بعده التحجيل والناس أدهم

ومن أجود ما قيل فى الثريا قول بعض الشعراء :

ولاحت لساريها الثريا كأنها على الأفق الغربى قرط مسلسل

أخذه ابن الرومي فقال

طيب طعمه إذا ذقت فاه والثريا فى جانب الغرب قرط

ومن أحسن ما قيل فى شروق الكأس قول ابن الرومي ، وأتى بشيء لم يسبق إليه ، وهو تشبيه الحباب بفلق اللؤلؤ ، فقال :

لها صريح كأنه ذهب ورغوة كاللآلىء الفلق (١) :

وقال ابن الرومي :

وقبلت أفواها عذابا كأنها ينابيع خمر خضبت لؤلؤ البحر

---

(١) الفلق الصبح :

قال ابو هلال فى ديوان المعانى (١) : البحر زيادة لا يحتاج إليها . لأن اللؤلؤ لا يكون إلا فى البحر . فلو كان فى غير البحر لؤلؤ فليس لنسبته إليه فائدة . وآخيرا فلابن الرومي القدرة الفائقة على تهجين ما أجمع الناس على استحسانه كما فعل فى الورد من تهجينه وتفضيل النرجس فى صورة جميلة مؤثرة (٢)

وبعد . فيغنينا ذلك كل الغنى فى فهم القيمة الأدبية لتشبيهات بن الرومي .

ولننتقل بعد ذلك إلى البحث الآخر فى هذا الكتاب .

موازنات أدبية بين التشبيه

فى شعر الشاعرين

أولا : التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومي حسى ، وإن ألم ابن الرومي ببعض التشبيهات فى غير الحسيات

ثانيا : لحاسة البصر ، وللألوان خاصة ، منزلة كبيرة فى تشبيهات

---

(١) ٢٣٩ / ١

(٢) وذلك فى قطعة شعرية طويلة أولها :

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد

حللها عبد القاهر وبين منزلتها فى البيان وفى جوده التخييل وحسن التعليل حتى قال فيها :

إنه جاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له (٢٤٨ أسرار)

الشاعرين .

ثالثا : كل من الشاعرين يستمد مادة التشبيه من بيئته ، ولذلك كثرت فى تشبيهات ابن المعتز ألوان الحياة المترفة ، من كؤوس التبر ، وأوانى الفضة ، وصحاف الذهب المحلاة بأنواع الجواهر الكريمة واللآلىء النادرة ، مما لا يوجد نظيره عند ابن الرومي إلا نادرا

رابعا : التشبيه عند ابن المعتز ملكة ، وعند ابن الرومي رغبة فى ابتداع الصور والمعانى ، ولذلك كثر فى شعر ابن المعتز ، حتى لا تبلغ كميته عند ابن الرومي حد تلك الكثرة

خامسا : وألفاظ ابن المعتز فى التشبيه أرق من ألفاظ ابن الرومي فيه ، أما دقة التصوير فهى سمة للتشبيه فى شعر الشاعرين

سادسا : ابن الرومي فى صوره يمزج الأصباغ ويركب الصور ، وابن المعتز يزجيها مجتمعة دون اتحاد وامتزاج

سابعا : وهذا لون آخر من ألوان الموازنة بين التشبيه فى شعر الشاعرين

قال امرؤ القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه   أساريع ظبى أو مساويك إسحل

وحول هذا المعنى يقول أبو نواس :

تعاطيكها كف كأن بنانها   إذا اعترضتها العين صف مدارى

ويقول ابن الرومى :

أشارت بقضبان من الدر رقمت   يواقيت حمرا فاستباح فؤادى

ويقول ابن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضة   مقومة أثمارهن عقيق

وقال ابن الرومى :

أعانقه والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد العناق تدان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحان يمتزجان

وفى هذا المعنى يقول ابن المعتز :

يارب إخوان صحبتهمو لايملكون لسلوة قلبا
لوتستطيع قلوبهم فقدت أجسادها وتعانقت حبا

وقال ابو نواس فى الراح :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الضحاك وأحسن :

كأنما نصب كاسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

وقال ابن الرومى فيه ، وكان احسن منهما :

فكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعا :

وكأنه وكأن الكاس فى فه هلال أول شهر غاب فى شفق

وهو أحسن ماوصف به كأس على فم

ومن أحسن ما قيل فى وصف مغن قول ابن المعتز :

ومغن ملحق كل نفس بهواها ، وهو للسكر عذر

وأجمع من ذلك قول ابن الرومى :

تتغنى كأنها لا تغنى من سكون الأوصال وهى تجيد
ولها الدهر لائم مستزيد ولها الدهر سامع مستجيد

وقال ابن الرومى :

كأن نسيمها أرج الخزامى ... ولاها من بعد وسمى ولى
إذا أنفاسها نسمت سحيرا ... تنفس – كالشجى – لها الخلى

وحول هذا المعنى يقول ابن المعتز :

ومابح قاع عازب طله الندى ... وروض من الريحان ذرت سحائبه
فجاءت سحيرا بين يوم وليلة ... كما جر فى ذيل الغلالة ساحبه

ثامنا : وقد يكون فى الأمكان الموزانة بين قصيدتين للشاعرين ، فى موضوع واحد ، لنرى من هذه الموازنة مدى فن كل من الشاعرين فى التشبيه ، ولكن هذه الموازنة لا تعطينا حكما حاسما على شاعرية أيهما ، لأنه كثيرا مايأتى أحد الشاعرين بتشبيهات فى موضوع القصيدة لايأتى بها الآخر ، ومع ذلك فأنا أعرض هاتين القطعتين ، اللتين اخترتهما من شعر الشاعرين لتقاربهما فى الخيال ، ووحدتهما فى الموضوع ، فوق وحدتهما فى الوزن

قال ابن الرومى من قصيدة فى وصف مجلس الراح :

شمس من الحسن فى معصفرة ... ضاهت بلون لها معصفرها
فى وجنات تحمر من خجل ... كأن ورد الربيع حمرها
يسعى إليها بكاسه رشأ ... أنثه الله وذكرها
فى كفه كالشهاب لاح على ... ظلماء ليل دجت فنورها
إن برزت للهواء غيرها ... أو قرعت بالمزاج كدرها

ويقول ابن المعتز فى مجلس الراح أيضا من قصيدة :

ومجلس جل أن نشبهه ... جن به مزهر ومزمار
وزانه من بنى العباد رشا ... بالجيد والمقلتين سحار

قد ركبت كفه مشعشعة ... إبريقها فى الكؤس هدار
يلمع فيها من كل ناحية ... كوكب نوره إليك نظار
فظلت فى يوم لذة عجب ... وافى به للسعود مقدار
وقابل الشمس فيه بدر دجى ... يأخذ من نورها ويمتار

١ ـ ففى هاتين القطعتين وصف للساق والراح ، وفى قطعة ابن الرومى زيادة وصف للقينة التى تغنى فى مجلس الراح

٢ ـ وصف ابن الرومى الساق بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر

٣ ـ شبه ابن الرومى نور الراح فى الكأس ، بالشهاب فى ظلام الليل ، أما ابن المعتز فقد شبه الكأس بالبدر ، والراح بالشمس . وجعل الكأس يأخـذ من نورها ويمتار

٤ ـ وصف ابن الرومى الراح بأنها أصفى من الماء وألطف من الهواء ووصفها ابن المعتز بكوكب نور متوقد

٥ ـ ألفاظ ابن المعتز موسيقية . وأعذب من ألفاظ ابن الرومى

٦ ـ وابن الرومى فى جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير . لا يتعمد لمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض بل يزجيها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج

٧ ـ وابن الرومى يفوته أحيانا ماهو أبلغ فى الوصف . وأروع فى أداء الغرض ، من حيث لا يفوت ذلك ابن المعتز ، كما رأينا فى وصف ابن الرومى للساق بالأنوثة ، ووصف ابن المعتز له بالسحر

تاسعا : وليس هناك شىء آخر يمكن أن نعرضه فى سياق الموازنة بين الشاعرين فى التشبيه ، إلا هذه الرواية الأدبية التى رواها ابن رشيق

فى العمدة والبغدادى فى خزانة الأدب والعباسى فى معاهد التنصيص. فقد لام لائم ابن الرومى ، وقال له . لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ، فقال : ألا تنشدنى شيئا من قوله ، الذى اسعجزتنى عن مثله ، فأنشده قوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له . زدنى ، فأنشده قوله فى الآذريون (وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة)

كأن آذريونها   والشمس فيها كالية
مداهن من ذهب   فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته . لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف ، أين يقع قولى من الناس هل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام

وساق صبيح للصبوح دعوته   فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم   فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا   على الجود كنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر   على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل   مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به   يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة   وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تمداح دائرة   فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وقولى فى قالى الزلابية :

رأيته سحرا يقلى زلابية   فى رقة القشر والتجويف كالقصب

يلقى العجين لجيناً من أنامله   فيستحيل شبابيكا من الذهب

أئمة الشعر فى القرن الثالث : نقد وتحليل

كان أبرز شعراء القرن الثالث أبو تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز . وقد علمت ما سبق عن ابن الرومى وابن المعتز الكثير

كان أبو تمام وابن الرومى يتعمقان فى الثقافة وينزعان إلى التفكير ويؤثران المعانى العميقة والآراء البعيدة فى الشعر ، وكان أبو تمام مع ذلك يتخذ الشعر صناعة فنية دقيقة فهو يختار ألفاظه وأسلوبه اختيارا دقيقا ، ويصوغه صياغة خاصة مصبوغة بألوان الترف والزخرف وأصباغ البديع المتعددة التى عرفها شعراء القرن الثالث بذوقهم وعقلهم ؛ من حيث كان ابن الرومى قائما بالغوص على المعانى دون التعمل أو إيثار لألوان الجمال فى الأسلوب ؛ أما أبو عبادة البحترى فقد كان قريبا فى أفكاره واضحا فى أسلوبه ، يحب الصنعة ولكنه يؤثر منها ما كان موائما للفطرة العربية السليمة وللذوق الأدبى الخالص الذى لم تفسده آثار الحضارة وألوان الثقافة ومذاهب الصنعة فى الشعر ، وكان شعره صورة لهذا الاتجاه دون ما سواه ؛ أما ابن المعتز فقد شغف بصناعة الشعر شغفا شديدا ؛ فتأنق فى ألفاظه وفى أسلوبه وأجاد فى ألوان البديع وأصباغ الزخرف

التى وشى بها شعره ، وعنى بذلك عناية كبيرة ، ومع ذلك فانه لم يغفل نزعات التفكير التى كان يدفعه إليها عقله وبيئته وألوان الثقافات التى امتزجت بالحياة العقلية فى هذا العصر الخصب ، فكان شعره صورة عامة لمدرسة أبى تمام ومدرسة البحترى ومثلها أدق تمثيل مع ظهور شخصيته ووضوح أثره فى الحياة الأدبية وتطور الشعر فى عصره

ونحن بعد ذلك لا غنى لنا عن عرض آراء النقاد فى أبى تمام والبحترى وابن الرومى عرضا واسعا يوقفنا على اتجاه ومنهج كل شاعر فى التفكير والانتاج

أما أبو تمام فشاعر مبدع ألقيت إليه زعامة الشعر من جميع الشعراء فى عصره وآثر فى نظم الشعر تجويد المعنى ودقته ، فكان « لطيف الفطنة دقيق المعانى غواصا على ما يستصعب منها (١) » ، وهو « متكلف إلا أنه يصيب ، وشغله المطابقه والتجنيس ، جزل المعانى ، مدحه ورثاؤه لا غزله وهجاؤه ، وطارت له أمثال وحفظت له أقوال (٢) » ، « ولا يتعلق بجيده جيد أمثاله ورديئه مرذول مطروح (٣) » ، « وكان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ منتبعة (٤) » « وهو رأس فى الشعر ومبتدىء لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه

---

(١) ١٦٨ / ٧ مهذب الأغانى

(٢) ٢٤٩ وسائل البلغاء من وسائل الانتقاد لابن شرف

(٣) ٢ الموازنه

(٤) ١٦٦ رسالة الغفران

فيه(١) » ، وقد شغف بجزالة اللفظ ومتانة الاسلوب وبالصنعة وقصد البديع فهو أكثر الشعراء بديعا وافتنانا وصنعة فى شعره إلا أن مصنوعه جيد يشبه أن يكون مطبوعا ولحلاوة شعره ودقة أسلوبه خفيت الصنعة فيه كثيرا ، وهو من « المعروفين بجودة الرثاء (٢) » « ولم يكن له حلاوة توجب له حسن التغزل (٣) ، وكان يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك فى شعره (٤) ، وكان يأتى فى شعره برد الأعجاز على الصدر ولا يأتى به إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه ٥ وقصيدته « متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل » محشوة بالصنعة وتكلف فيها ألوان البديع مما عيب هو وأشباهه عليه ٦ ، وشعره مباين للشعر فى عصره مباينة واضحة من حيث تصوره للشعر وشدة أخذه نفسه بتجويد المعنى ووحدة القصيد وفى كلفه بوصف الطبيعة وميله إلى المعانى الفلسفية يضمنها شعره أيا كان الموضوع الذى ينظم فيه ، ويرى بعض المحدثين أنه يجيد فى هذا المعنى وذاك ولكنه لا يعرض

---

(١) ٣٧ أخبار أبى تمام للصولى . وراجع رد الآمدى عليه فى ذلك ص ٦ من الموازنة

(٢) ٢٤١ / ٢ العمدة

(٣) ١١٣ / ٢ العمدة

(٤) ١٨٢ / ١ العمدة

(٥) ١٨٣ / ١ العمدة

(٦) راجع ١٩٥ إعجاز القرآن

عليك العالم كله في حالة من الحالات (١) ، ويرى آخر أن أبا تمام لا يعد في نظر أهل العصر الحاضر مثلا أعلى للشعر لأنه لم ينقل في شعره كثيرا من صور العواطف التي كانت تجيش بصدر المجتمع في ذلك الحين ولم يمثل الحياة القومية في عصره تمثيلا صحيحا ولم يكن كأبي العلاء حرا في إبداء ما يختلج بنفسه من المعاني ولا شجاعا في بيان ما يعتقده حقا (٢) . ومهما يكن فقد كان أبو تمام رأس طبقته ، وأخمل هو والبحتري في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد كما يقولون ، وتتلمذ عليه كثيرون كالبحتري وسواه ، وكان البحتري يقدمه وكذلك ابن الرومي (٣) ولم يدركه ابن المعتز وإن كان تتلمذ على أدبه وشعره

***

وأما البحتري فتلميذ أبي تمام ، وكان يتشبه به في شعره ، ويحذ وحذوه في البديع وكان يراه صاحبا وإماما (٤) ، ترسم خطا أبي تمام ومضى على آثره في البديع إلا أنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى (٥) ، استمد معانيه من وحي الخيال وجمال الطبيعة لا من أراء العلم وقضايا المنطق والفلسفة فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته ورونقه حتى قال المتنبي فيه « أنا وأبو تمام

(١) راجع مقالة للعقاد في الرسالة عدد ٤٥٨
(٢) ص ٨ مقدمة مختصر شرح ديوان الحماسة
(٣) ٦٥ أخبار أبي تمام
(٤) ١٨٣ / ٧ مهذب الأغاني
(٥) ٣٠٢ المثل السائر

حكيمان والشاعر البحترى » ، ويشيد النقاد بعذوبته وجمال لفظه وأسلوبه (١) ، وهو فى عذوبة اللفظ وسهولته يسبق فى هذا الميدان والكتاب يفضلون كلامه على كل كلام ويقدمون رأيه فى البلاغة على ما وصفه :

فى نظام من البلاغة ما شك ... امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا ... حك فى رونق الربيع الجديد
حزن مستعمل الكلام اختيارا ... وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركن ... به غاية المرام البعيد (٢)

وهو من المكثرين فى وصف الخيال المجيدين فيه (٣) ، وأحسن الناس طريقا فى العتاب (٤) ، وكان بعض النقاد تختم به الشعراء (٥) ونوه به الآمدى فى الموازنة أعظم تنويه (٦) ، وكان يذكر أن أجود

---

(١) راجع : ٢٤٩ رسائل البلغاء ، ٧٣ أخبار أبى تمام للصولى ، وكان يقال لشعره سلاسل الذهب (٣٧٨ / ١ كشف الظنون) . وكثر الغناء فى شعره استظرافا لما فيه من الحلاوة على طبع البداوة (١٢٨ / ١ العمدة)

(٢) ١٠٠ إعجاز القرآن

(٣) ٩٩ ديوان الصبابة لابن حجلة

(٤) ١٥٢ / ٢ العمدة

(٥) ١٨٣ / ٧ مهذب الاغانى

(٦) راجع الموازنة ، ٢٠٥ / ١ العمدة

شعره « أهلا بذلكم الخيال المقبل »(١) ، وكان ابن المعتز يشيد بشاعريته وبقصيدته فى وصف إيوان كسرى وقصيدته فى وصف بركة المتوكل واعتذاراته (٢) ، وكان الصاحب يعجب بطريقة شعراء الشام المثلى التى هي طريقة البحترى فى الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة (٣)

وإنما يوازن شعر البحترى بشعر شاعر من طبقته ومن هو فى مضماره أو فى منزلته (٤) ونحن نفضل البحترى بديباجة شعره على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه ونقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقيده فى قوله (٥) ، والكتاب يفضلون البحترى على أهل دهره (٦) ، ويطيل الآمدى فى الموازنة بينه وبين أبى تمام (٧)

وقد اتصل البحترى بابن المعتز ، وله فى والده وفيه فى عهد طفولته قصائد كثيرة سبق الاشارة إليها ، وترجم له ابن المعتز فى كتابه

---

(١) ١٧٥ إعجاز القرآن
(٢) راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز
(٣) ٩ / ١ اليتيمة
(٤) ١٩٠ إعجاز القرآن
(٥) ١٩١ المرجع
(٦) ١٩٢ المرجع
(٧) راجع الموازنة وعلي الاخص ص ٢ و ١٨٠ و ١٨١ ويقول الآمدى إن النقاد لم يتفقوا على أيهما أشعر ص ٢ الموازنة

طبقات الشعراء ترجمة موجزة (١) وكان يشيد بشاعريته وبسينيته فى إيوان كسرى وهائيته فى بركة المتوكل (٢) ؛ وكان يجتمع به ويجلس معه (٣)

***

وأما ابن الرومي فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع وكان واسع العطن لطيف الفطن (٤) ، وهو أشعر أهل زمانه بعد البحترى وأكثرهم شعرا (٥) ، ويمتاز بطول نفسه فى قصائده (٦) ولم يجعل اللفظ شغلا شاغلا فى صناعته (٧) ، وكان من مختلق معانى الشعر (٨) وهو أولى الناس باسم شاعر (٩) ، وهو غريب الأخذ (١٠) ، ويرى

(١) ١٨٦ و١٨٧ طبقات الشعراء لابن المعتز وله تراجم فى : ٩٦ - ١٠٣ / ٣ وفيات ، ١٨٣ / ٧ وما بعدها مهذب الأغانى ، ٣٣٠ المرشح وما بعدها

(٢) راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز

(٣) ٦ مقدمة ديوان البحترى

(٤) ٢٤٩ رسائل البلغاء من رسائل الانتقاد لابن شرف

(٥) ٢٨٩ معجم الشعراء

(٦) ٣٠٨ ابن الرومي للعقاد

(٧) ٣١٦ المرجع

(٨) ٢١٤ / ٤ المسعودى

(٩) ٢٥٥ / ١ العمدة

(١٠) ١٠٥ / ٣ زهر ، وكان يأخذ الحكم الفارسية فينظمها شعرا (راجع ٢٧٨ / زهر)

صاحب الوساطة أن قصائده على طولها لا تعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين (١) وهو على أى حال شاعر مجيد وعلم من أعلام القريض فى القرن الثالث ، ويمتاز ابن الرومي بتفضيله اللفظ على المعنى وباستقصائه واختراعه وتوليده فى معانيه

كان ابن الرومي شاعرا مكتهل السن وابن المعتز مايزال يافعا شابا ، وكان ذلك يضع ابن الرومي موضع الأستاذ لابن المعتز ، ولكن الأمير لم يبال به ولا تأثر تأثرا واضحا بشعره ، لأنه كان بين الشاعرين صلات مقطوعة ، ففضلا عن تفاوت السن كان ابن المعتز سنيا وابن الرومى معتزليا ، وكان ابن الرومي يحب المستعين ويكره المعتز كما أحب المهتدى وهجا المعتز قبل قتله وقد سبق ذكرذلك ، وكان لذلك ولاشك أثره فى نفس الأمير ، فنقم على ابن الرومي واعتزله ورفض الاتصال به ولم يترجم له فى كتابه طبقات الشعراء مع أنه ترجم للبحترى (٢) ولأبى تمام (٣) ولأبى العيناء (٤) والناشىء م ٢٩٣ (٥) وسواهم .

وأما ابن المعتز فشاعريته وشعره وبسط الكلام فى ذلك وفى كل ما يتصل به ستجده فى كتاب جديد مستقل ان شاء الله تعالى ؛ وإن كان قد سبق الالمام ببعض منه . وبالله التوفيق ؟

---

(١) ٥٤ الوساطة
(٢) ١٨٦ طبقات ابن المعتز
(٣) ١٣٣ المرجع
(٤) ١٩٦ المرجع
(٥) ١٩٨ طبقات الشعراء لابن المعتز ؟

خاتمة

وبعد فهذا نهاية ذلك البحث الأدبي الجديد الحافل بألوان النقد والموازنة والتحليل والدراسة ، الجديد فى بابه وفنه ومنهجه وموضوعه، وأرجو أن أكون قد وفيته حقه من الجهد و العناية والاهتمام، وأن يكون مثلا يقتدى به فى باب الدراسة الادبية وما توفيقى إلا بالله ؟

٢٠ ـ ١٠ ـ ١٩٤٨ محمد عبد المنعم خفاجى

فهرست الموضوعات

استدراك

وقعت بعض أخطاء مطبعية فى الكتاب ننوه بها فى هذه الصحيفة

الصحيفة	السطر	الكلمة	صحتها
٥	١٠	الفيية	الفنية
٦	١٧	حسب	حبيب
٧	١١	هغ	ه
٧	١٤	البليد و	البليغ
١٠	١٦	ورعته	وروعته
١٣	٧	شعر- ذا	شعره ـ إذا
١٤	١١	زصورة	قصوره
١٤	١٥	التخصيص	التنصيص
١٦	١٥	ويشد	ويشيد
٢١	٩	الغلاة	الفلاة
٢٧	٤	قصد	قصدا
٣٤	٢١	تجتهد	يجتهد

مطبوعات للمؤلف

١ — وحى العاطفة
٢ — نشيد الصحراء
٣ — شرح البديع لابن المعتز نشر مطبعة مصطفى الحلبى
٤ — رسائل ابن المعتز فى النقد والآدب والاجتماع نشر مطبعة مصطفى الحلبى
٥ — قواعد الشعر لثعلب شرح وتعليق المؤلف نشر مطبعة مصطفى الحلبى
٦ — التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومي
٧ — الشعر العربى اوزانه وقوافيه — مقرر العروض للسنة الأولى الثانوية بالأزهر الشريف — نشر مطبعة مصطفى الحلبى
٨ — ليلى الأخيليه الشاعرة
٩ — فن الشعر — مقرر العروض والقوافى لطلبة كلية اللغة العربية نشر مطبعة محمود صبيح بالأزهر